ابن مرزوق الحفيد ومنهجه

في كتابه المتجر الريح في شرح الجامع الصحيح للبخاري

د. حفيظة بلميهور

أستاذة محاضرة بكلية العلوم الإسلامية

جامعة الجزائر 1

الحمد لله عدد خلقه ورضى نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته والصلاة والسلام على أفضل الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وسار على هديه صحابته رضوان الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فهذا بحث متواضع نحاول فيه التعريف بالإمام ابن مرزوق الحفيد، أحد أعلام الجزائر البارزين في القرن التاسع الهجري، الرابع عشر الميلادي، وذلك بالتعرف على حياته الذاتية والعلمية، وأهم مؤلفاته، مركزين على منهجه في كتابه " المتجر الريح والمسعى الرجيج والمرحب الفسيح والوجه الصبيح والخلق السميح في شرح الجامع الصحيح⁽¹⁸¹⁾"

" هذا الكتاب الذي يمثل مساهمة المغرب في شرح صحيح البخاري، واهتمامهم بالأصول، ويرد على أولئك الذين زعموا أن علماء المغرب اهتموا فقط بالفروع.

تمهيد: لقد شهد المغرب ازدهارا علميا خلال القرن السابع والتاسع الهجريين، الثالث، والرابع عشر الميلادي، رغم تدهور الأوضاع السياسية، فكانت تلمسان من أعظم أمصار المغرب التي ضاهت أمصار الدول الإسلامية كما قال ابن خلدون، نبغ فيها كثير من العلماء وعلى رأسهم ابن مرزوق الحفيد صاحب المتجر الريح، موضوع بحثنا هذا.

ومما زاد في تعزيز الحياة الفكرية وازدهارها، وانتشار العلماء، وكثرتهم، اهتمام الأمراء بإنشاء المساجد، والمدارس التي كانت خير دليل على الازدهار العلمي آنذاك.

(181) كذا ورد العنوان كاملا في مقدمة المتجر الريح لابن مرزوق الحفيد، الجزء الأول وقد ذكره صاحب فهرست معلمة التراث الجزائري بشير ضيف: 82/2 إلا أنه أخطأ في عنوانه وفي نسبة "شرح الشفا" إلى ابن مرزوق الحفيد؛ والصحيح أنه لجدّه، وكان الحفيد ابن مرزوق قد اطلع على نسخة "الشفا" لجدّه وبخطه بالقاهرة، أطلعه عليها الحافظ ابن حجر عندما زاره في رحلته (ر: الدرر الكامنة: ابن حجر 362/3).

مثل مسجد تلمسان الكبير، وجامع أغادير الأعظم بتلمسان⁽¹⁸²⁾، والمسجد العظيم الذي شيده السلطان أبو الحسن بالعباد، جاء في العبر: وقد شيّد بالعباد مسجد عظيم كان عم محمد ابن مرزوق خطيباً به¹⁸³، ويقصد بالعم عم ابن مرزوق الجد.

بالإضافة إلى إنشاء عدة مدارس كبرى، كانت منارات علمية، تخرج منها الكثير من العلماء، وكانت لهذه المدارس والمساجد أوقاف عظيمة تصرف عن الفقهاء والمدرسين والطلبة. كما أنشأ الأمراء المشتغلون بالعلم الزوايا، ودور العلم، نذكر منها زاوية أبي عبد الله بن محمد التميمي (756) حفيد الفقيه القاضي المبارك أبي عبد الله محمد بن أبي عمرو التميمي الذي من أجل كتبه ترتيب كتاب اللخمي على المدونة، وأنشأ زاوية بتلمسان كائنة بطريق العباد، كانت مركزاً علمياً تعلم فيه وتخرج منه الكثير.

كان لعلماء الأندلس النازحين أثر كبير في مزج الثقافة المغربية بالثقافة الأندلسية وأصبح المسجد الجامع بتلمسان، و الجامع الأعظم بأجادير لا يقلان أهمية عن جامع القرويين والزيتونة⁽¹⁸⁴⁾ كل ذلك جعل من هذا العصر عصر ازدهار علمي، حفل بطائفة من مشاهير العلماء في الفقه والحديث واللغة، وكانت تلمسان آنذاك موطن العلماء وكعبة طلاب العلم، لم يؤثر فيها الاضطراب السياسي وانتشار الفتن، قال "البكري"⁽¹⁸⁵⁾ "... دائما بلد علم وعلماء ومركز سنة وجماعة، وبنو زيان كانوا من رعاة العلوم حيث قربوا العلماء والأدباء والفقهاء.

وقد وصف تلمسان أبو الحسن القلصادي الأندلسي - في رحلته (سنة 840 هـ) عندما قصدتها في طلب العلم وهي تعيش أزهى أيام حياتها الثقافية - فقال: "... المقصودة بالذات المخصوصة . و أدركت فيها الكثير من العلماء والصلحاء والعباد والزهاد، وسوق ... بأكمل الصفات : تلمسان، العلم حينئذ نافقة وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة والهمم إلى تحصيله مشرفة وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان المشهود لهم بالفصاحة والبيان، وأولاهم

182 : تاريخ المغرب: مؤنس: 147/2.

183 : تاريخ ابن خلدون: 473/7.

184 : بغية الرواد: يحيى بن خلدون: 92، تاريخ المغرب: حسين مؤنس: 147/2.

185 : البكري هو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري ت1094م، له كتاب صفة إفريقية والمغرب، قطعه من كتاب المسالك والممالك.

بالذكر والتقديم الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا سيدي أبو عبد الله محمد بن
186 أحمد بن محمد بن مرزوق..."

المبحث الأول: التعريف بابن مرزوق الحفيد (سيرته الذاتية والعلمية)

المطلب الأول: سيرته الذاتية:

هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق الحفيد¹⁸⁷
العجيسي¹⁸⁸ التلمساني أبو عبد الله واشتهر بالحفيد، تميّز له عن غيره من علماء المرازقة¹⁸⁹.
ويقصد بالحفيد، حفيد ابن مرزوق الجد المشهور بالخطيب شمس الدين المتوفى سنة: 781هـ.
ولد ليلة الاثنين رابع عشر من ربيع الأول عام ستة وستين وسبعمائة للهجرة (766هـ) الموافق للعاشر
من ديسمبر عام 1364م بتلمسان.

قال ابن حجر في المعجم المؤسس: "...و ذكر ابن مرزوق بخطه أن مولده في ربيع
الأول سنة ست وستين"¹⁹⁰. وقال ابن غازي: ولد ابن مرزوق الحفيد بتلمسان المحروسة سنة ست
وستين وسبع مائة، وتوفي جده بالقاهرة سنة إحدى وثمانين وسبع مائة، قاله ابن خلدون أيضا¹⁹¹.
واهتم ابن مرزوق الحفيد بالرحلة في طلب العلم، رحل من تلمسان إلى قسنطينة حيث تعلم
وعلم، ومنها إلى مختلف البلاد شرقا وغربا حتى وصف بالرحالة.
وصفه التنبكتي بـ"الرحلة الحاج"¹⁹² شرق وغرب، ورحل إلى تونس فأقام بها عالما ومتعلما.

¹⁸⁶ رحلة القلصادي: دراسة وتحقيق محمد أبو الأجنان: 94 ط2 78/7/14 تحت عدد: 5078.

¹⁸⁷ رحلة القلصادي: 96، الضوء اللامع: السخاوي: 50/7، نيل الابتهاج: 499، كفاية المحتاج: التنبكتي: 391. تعريف

الخلف: 128/1، الأعلام: الزركلي: 5/ 331 ط2، دار العلم للملايين بيروت) أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة: يحيى

بوعزيز: 2: 56. البستان: 201، تاريخ الأدب العربي: د/عمر فروخ: 6/634-640، المعجم المؤسس (ملحق): ابن

حجر: 514، نفح الطيب: 420/5.

¹⁸⁸ : لقد لقب ابن مرزوق بالعجيسي لأن أسرته كانت تنتسب إلى العجيسة وهي قبيلة بربرية من زناتة معروف مكانها منها. ر:
المجموع لابن مرزوق: 1 (المخطوط).

¹⁸⁹ : لقد حفلت عائلة المرازقة بكثير من العلماء الفطاحل لهذا اشتهر كل منهم حسب وجوده في الأسرة : الجد والحفيد وحفيد
الحفيد وذلك تسهيلا في التفرقة بينهم .

¹⁹⁰ : المعجم المؤسس: ابن حجر: 514 (الملحق).

¹⁹¹ : انظر فهرس ابن غازي: 187، تاريخ ابن خلدون: 475/7.

¹⁹² نيل الابتهاج للتنبكتي 305 ونفح الطيب للمقري 420/5 .

قال الثعالبي: "... وقد علمنا بتونس شيخنا أبو عبد الله ابن مرزوق فأقام بها وأخذت عنه كثيرا وسمعت جميع الموطأ بقراءة صاحبنا أبي حفص عمر ابن شيخنا محمد القلشاني وختمت عليه أربعينيات النووي قرأتها عليه في منزله قراءة تفهم ، وكان كلما قرأت عليه حديثا يعلوه خشوع وخضوع ثم أخذ بالبكاء فلم أزل أقرأ وهو يبكي إلى أن ختمت الكتاب رحمه الله..."¹⁹³

والتقى ابن مرزوق الحفيد بالإمام ابن عرفة وحضر مجالسه كما حكى ذلك في بعض كما التقى بأبي العباس القصار، وبعدها رحل إلى فاس فأخذ بها عن الشيخ أبي زيد¹⁹⁴ فتاويه المكودي وابن حياتي والحافظ محمد ابن مسعود الصنهاجي الفيلاي ثم رحل إلى المشرق فدخل مصر وحط رحاله بالقاهرة حيث أخذ عن لقي بها من جلة العلماء¹⁹⁵.

ورحل إلى مكة حاجا (سنة 790هـ/ 1388م) رفقة ابن عرفة فلقى بها جمعا من العلماء، من بينهم ابن صديق الذي روى عنه صحيح البخاري، وحج ثانية (عام 819هـ/ 1416م) والتقى بعلماء أجلاء، أخذ عنهم.

قال ابن حجر ضمن ترجمته لجدته شمس الدين (المتوفى سنة 781هـ): "و قدم علينا حفيده محمد بن أحمد بن أبي عبد الله بن مرزوق القاهرة وحج بعد العشرين وكان قد وقع لي شرح الشفاء بخط جده فاتحفته به وسر به سرورا كثيرا ونعم الرجل هو معرفة بالعربية والفنون وحسن الخط والخلق والخلق والوقار والمعرفة والأدب التام ورجع إلى بلاده بعد أن حدّث وشغل وظهرت فضائله حفظه الله تعالى"¹⁹⁶، وأضاف ابن حجر قوله في المجمع المؤسس: "...سمع مني وسمعت منه..."¹⁹⁷.

و بعد حياة حافلة بالعلم والعمل والترحال مات ابن مرزوق في عشية الخميس رابع عشر من شعبان سنة اثنين وأربعين وثمانمائة (ت 842هـ/ 1439م) عن عمر يناهز الست والسبعين سنة بتلمسان، وهذا بإجماع العلماء الذين ترجموا له.

المطلب الثاني: سيرة ابن مرزوق الحفيد العلمية

الفرع الأول: رحلاته العلمية

¹⁹³ نيل الابتهاج التنبكي 308 ، البستان 206 ، النفع 425/5 .

¹⁹⁴ -نيل الابتهاج /312 ، نفع الطيب /431/5 .

¹⁹⁵ -تاريخ الجزائر العام : عبد الرحمن جيلالي 210/2 ، 211 .

¹⁹⁶ : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر: 3: 360-362.

¹⁹⁷ : المجمع المؤسس: 514 (ملحق)، البستان: ابن مرزوق: 209.

اهتم ابن مرزوق الحفيد بالرحلة في طلب العلم، فرحل إلى الأمصار بعد أن أخذ العلم عن علماء بلده كإبراهيم المصمودي والشريف التلمساني بتلمسان، وابن قنفذ القسنطيني بقسنطينة. ذكر القلصادي في رحلته أن ابن مرزوق الحفيد رحل رحلتين إلى الحج، الأولى كانت سنة ثنتين وتسعين وسبعمائة (792هـ)، التقى فيها بالإمام ابن عرفة بتونس وحضر مجالسه، ثم حج رفقة فلقبي جمعا من العلماء من بينهم ابن صديق الذي روى عنه صحيح البخاري، وابن الملقن والهيثمي، والنور النويري والدماميني وغيرهم.

والرحلة الثانية كانت عام (819هـ/1416م) التقى بعلماء أخذ عنهم وأخذوا عنه. وأجاز في هذه الرحلة عبد الرحمن الثعالبي واستجاز كل من لقي، وجلهم أو كلهم في طبقتهم منهم: ولي الدين العراقي وابن حجر وبدر الدين العيني، والبرزلي، وغيرهم.

قال ابن حجر ضمن ترجمته لابن مرزوق الجد - شمس الدين - (ت 781هـ): "و قدم علينا حفيده محمد بن أحمد بن أبي عبد الله بن مرزوق القاهرة وحج بعد العشرين وكان قد وقع لي شرح الشفا بخط جده فأتحفته وسرّ به سرورا كثيرا، ونعم الرجل هو معرفة بالعربية والفنون، وحسن الخط والخلق والخلق والوقار والمعرفة والأدب التام ورجع إلى بلاده بعد أن حدث وشغل وظهرت فضائله حفظه الله تعالى¹"، و قال أيضا في الجمع المؤسس: "...سمع مني وسمعت منه..."².

الفرع الثاني: شيوخ ابن مرزوق الحفيد، أقرانه، وتلاميذه:

من شيوخه: أخذ ابن مرزوق الحفيد العلم على يد علماء أجلاء نذكر منهم:

- ابن مرزوق الجد: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني، اشتهر بالخطيب والجد والرئيس، ولد بتلمسان سنة 710هـ/1310)³.
ومن شيوخه أيضا: سعيد العقباني (ت 811هـ)¹ وإبراهيم المصمودي، والشريف التلمساني (ت 792هـ) كما ذكر ذلك بن مرزوق الحفيد، و عبد الرحمن ابن خلدون، وابن عرفة الورغمي التونسي، والفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط (ت 817هـ)² والحافظ العراقي.

¹ : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر: 3: 360-362.

² : الجمع المؤسس: 514 (ملحق)، البستان: ابن مريم: 209.

³ : قال ابن خلدون: ومولده فيما اخبرني سنة: ستة عشرة وسبعمائة: العبر: 472/7.

ومن أقرانه، أبو عبد الله الشريف التلمساني (ت847هـ). وقاسم العقباني، والحافظ ابن حجر العسقلاني، الذي التقى به ابن مرزوق فسمعا من بعضهما، ومن بين ما شهد به ابن حجر لابن مرزوق قوله في معرض كلامه عن جده الخطيب: "وقدم علينا حفيده محمد بن أحمد بن أبي عبد الله بن مرزوق القاهرة وحج بعد العشرين وكان قد وقع لي شرح الشفاء بخط جده فأتحفته به، وسر به سرورا كثيرا، ونعم الرجل معرفة بالعربية والفنون وحسن الخط والخلق والوقار والمعرفة والأدب التام ورجع إلى بلاده بعد أن حدث وشغل وظهرت فضائله حفظه الله تعالى"³ ومن أقرانه أيضا أبو يحيى بن عقيبة القفصي⁴، والقلشاني⁵.

ومن تلاميذ ابن مرزوق التلمساني الحفيد، نخص بالذكر منهم :

- ابنه ابن مرزوق الذي يعرف بالكفيف (824-901 هـ).

- أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي من كبار علماء الجزائر.

- المجاري أبي عبد الله محمد بن علي بن عبد الواحد المجاري⁶ (ت862هـ) من آثاره : البرنامج الذي ذكر فيه رحلاته وشيوخه.

- القلصادي: أبو الحسن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي ، الفقيه المتفنن الأستاذ الراوية الرحال آخر من ألف التأليف العديدة من أهل الأندلس (ت891هـ) بباجة⁷ .
مآثر ابن مرزوق الحفيد وأقوال العلماء وثناؤهم عليه :

(¹) : نيل الابتهاج : 125 ، كفاية المحتاج:138، البستان لابن مريم : 107 ، شجرة النور الزكية لابن مخلوف:250/1 ، لقط الفرائد: ابن القاضي: 236، تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي : 161/2، الأعلام للزركلي: 101/3، بغية الرواد، يحيى بن خلدون:123.

² : نيل الابتهاج : 309 ، كفاية المحتاج: التنبكي:396/ط1-1422/2002 دار ابن حزم.

³ : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر: 3: 360-362.

⁴ : ترجمته نيل الابتهاج: 206.

⁵ : هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله الباجي (من ناحية تونس لا باجة الأندلس) التونسي، عرف بالقلشاني، الفقيه الصالح ، من أكابر علماء الأندلس. ذكر الونشريسي وفاته (ابن القلشاني) سنة 848هـ وكذا التنبكي في الكفاية: 230) و السخاوي: 137/6 لكن الذي حققه صاحب الحلل السندسية في 606/1 أنه توفي سنة 847هـ، وذلك بعد مرض طويل.

⁶ : برنامج المجاري تحقيق أبو الأجنان : 32-42. الضوء اللامع : السخاوي :

⁷ : ثبت أبي جعفر البلوي: 104-105، نفع الطيب: 693/2، فهرس الفهارس: عبد الحي الكتاني: 314/2 المطبعة الجديدة عدد: 11/ 1347 معجم مشاهير المغاربة: أبو عمران الشيخ: 441.

فمن مآثره: شهادة أبي الحسن القلصادي في رحلته عندما ذكر فضل تلمسان وأعلامها، حيث وأولاهم بالذكر والتقديم الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير... قدم ذكر الحفيد ابن مرزوق في قوله: " الشهير شيخنا وبركتنا: سيدي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي رضي الله عنه كنف العلم والعلماء وجل قدره في مجلة الفضلاء ، قطع الليالي ساهرا وقطف من العلم أزهارا فأثمر وأورق وغرب وشرق حتى توغل في فنون العلم واستغرق إلى أن طلع إلى الأبصار هلالا لأن المغرب مطلعته، وسما في النفوس موضعه وموقعه و لله در القائل:

ألا إن أرض الغرب أفضل موطن تساق إليه الواخداث¹ النجائب²
ولو لم يكن في الغرب كل فضيلة لما حركت شوقا إليه الكواكب³

... وكانت أوقاته كلها معمورة بالطاعة ليلا ونهارا... وكانت له أوراد معلومة وأوقات مشهودة وكان له بالعلم عناية... ودراية تعضدها الرواية ونباهة تكسب النزاهة...⁴

آثار ابن مرزوق الحفيد ومؤلفاته:

خلف الإمام ابن مرزوق الحفيد ثروة علمية هائلة تتمثل:
أولا: في العلماء الفطاحل الذين أخذوا عنه ودرسوا عليه وأجازهم، وقد رحلوا إليه من الشرق والغرب والأندلس، وقد مرّ معنا ذكر بعضهم من تلامذته.
وثانيا: في الكتب التي صنّفها في مختلف الفنون، العقيدة والفقّه والحديث والتفسير وغيرها من الكتب التي ضاع أغلبها، وما بقي منها بعضه في المراكز العلمية والمكتبات العامة، وبعضه الآخر تحتكره بعض الأسر التي تمتلك خزائن للمخطوطات، ومن بين هذه الكتب نذكر:
كتاب عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد، وتفسير الإخلاص والمائدة ومريم، وكتاب نور اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين، والاعتراف في ذكر ما في لفظ أبي هريرة من

¹ الواخداث: المسرعات من الإبل التي ترمي بقوائمها كالنعام.

² النجائب: يقال نجب: جمع نجبة ونجبية: الفاضل من كل حيوان.

³ رحلة القلصادي: 97 والأبيات من البحر الطويل.

⁴ رحلة القلصادي: دراسة وتحقيق محمد أبو الأحناف: 94 ط2 78/7/14 تحت عدد: 5078.

الانصراف¹، وأنوار الدراري في مكررات البخاري، والمتجر الرياح في شرح الجامع الصحيح- محل دراستنا في هذا المقال- والروضة والحديقة.

وألف كتابه الموسوم ب: المنزع النبيل في شرح مختصر خليل، ويعدُّ من أشهر مؤلفاته "و هو في غاية الإتقان، والتحرير²، وإسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم، واغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة، وروضة الأريب ومنتهى أمل اللبيب في شرح التهذيب. وإيضاح المسالك في شرح ألفية ابن مالك³، ورجز تلخيص المفتاح في المعاني والبيان. والمفاتيح المرزوقية في استخراج رموز الخرجية في علمي العروض والقوافي، وهو عبارة عن شرح على الخرجية لأبي الحسن الخرجي المغربي، واسم الإشارة والموصول⁴ (عبارة عن مجلد وقف على أوله ابن مريم) وغيرها.

المبحث الثاني: منهج ابن مرزوق الحفيد في المتجر الرياح وموارده

المطلب الأول: منهج ابن مرزوق في كتابه "المتجرالرياح"

يمكن الوقوف على منهج ابن مرزوق الحفيد في كتابه "المتجر الرياح" من خلال مقدمته الجلييلة ومن خلال الطريقة التي اتبعها في شرح صحيح البخاري، والأسلوب الذي تناول به شرح الأحاديث. - ابتدأ ابن مرزوق كتابه "المتجر" بمقدمة تناول فيها بعد حمد الله المنعم والصلاة والسلام على أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ذكر المنهج الذي اتبعه في الشرح والسبب الدافع والباعث إلى تأليفه، فقال: "وكنت في زمن الشيبية والكهولة قد منَّ الله عليَّ بالاشتغال بصحيح البخاري فرويته ورؤيته مدة ودرسته فيه مفهما، ومستتبطا ما تضمن من فوائده حتى حثمته في سنين عدَّة وكان

¹ : هدية العارفين : 191/6، الأعلام: الزركلي: 331/5، قال الزركلي: أن هذا الشرح لم يكمل، وكان منه كما يظهر في المنزع الوصل بين الطريقتين طريقة المصريين (خليل) وطريقة المغاربة (ابن عرفة) إذ كثيرا ما اعتمد في شرح كلام خليل على استظهارات ابن عرفة (ر: الأعلام:331/5).

² : غنية الواحد وبغية الطالب الماحد: الثعالبي: 13 ؛ نيل الابتهاج: 311، كفاية المحتاج:397، إصلاح المذهب: 469.

³ : غنية الوافد وبغية الطالب الماحد: الثعالبي:13 (مخطوط) ؛ ثبت أبي جعفر البلوي:293، وفي الكفاية:إيضاح المسالك على ألفية بن مالك، وصل فيه إلى اسم الإشارة أو الموصول، مجلد في غاية الإتقان (كفاية المحتاج:397).

⁴ : البستان : ابن مريم : 211، في الكفاية: 397: إيضاح المسالك على ألفية ابن مالك وصل فيه إلى اسم الإشارة أو الموصول وهو في غاية الإتقان كما ذكر العلماء. .

يمرُّ بي في مجالس الرواية والإقراء ما أستحسّنه بزعمي من الفوائد وما لم أره لغيري وأظنه من جميل الفوائد.

ولم أوفق حينئذ لتقييد تلك الزوائد الشوارد ليتحمل بها من أراد نظمها في سلك نفايس الدرر والقلائد فطلبتها بعد الشيخ فوجدتها قد توحشت ولحقت بالأوائل... ومنذ ذلك الحين تاقت النفس إلى تقييد ما كنت أتمناه... وحرصت على تلافي ما فاتها من ذلك...⁽¹⁾.

ثم تناول التعريف بالإمام البخاري - عليه رحمة الله - وبجامعه الصحيح، وإبراز قيمته، فقال: "ومما يتأكد تقديمه في مقدمات الشروح من الآداب، ما أمكن من التعريف بمصنّف الكتاب، وإن كان مُصنّف هذا الكتاب غنيًّا عن مثلي له من التعريف.."⁽²⁾.

وبعد الترجمة لحياة البخاري الذاتية والعلمية ذكر ابن مرزوق الحفيد سبب تقديم المغاربة لصحيح مسلم على صحيح البخاري فقال: "وأما تفضيل بعض المغاربة لصحيح مسلم عليه فلا أمر غير الأصححية بل لأنه أسهل تناولاً وأقرب إلى الضبط، لجمعه متون الباب في موضع واحد.... بلفظها لا مفرقة على الأبواب، ولا مقطعة فيها، ولا يروى بالمعنى، ولا يخلطه بقول صحابي ولا قول عالم غيره، وهذه الجهة أو الجهات من الأفضلية مقابلة بجهات في البخاري، وتبقى الأصححية له مسلّمة من إفادة الجمع بين علم الكتاب والسنة وأقوال الأئمة.."⁽³⁾.

فتقديم المغاربة لصحيح مسلم ليس مطلقاً وإنما عند بعضهم، وهذا لغير غير الأصححية.

لقد اجتهد ابن مرزوق الحفيد في شرح صحيح البخاري، وجاء بتحقيقات دقيقة وفوائد جليّة، تعد إضافة لم يسبق إليها كما قال رحمه الله "لم أرها لغيري" وقد صرّح بذلك في مقدمة المتجر وفي بعض المسائل التي ذكرها، قال في المقدمة: "... ومن أهم ما لم يذكره جمع مقاصد أبواب من كل كتاب من كتبه الكبيرة ككتاب الصلاة ونحوه، أو من أكثرها في معنى كأنه فصل من الكتاب، ثم ينتقل إلى أبواب آخر تشترك في معنى آخر من ذلك الكتاب كأنه فصل آخر

⁽¹⁾ المتجر: 1/1-2 (المقدمة).

⁽²⁾ المتجر: 3/1.

⁽³⁾ المصدر نفسه: 10-9/1.

منه، وتبيين المناسبة بين تلك الأبواب والفصول، ووجه الترتيب في تقديم بعضها على بعض، وغير ذلك من المحاسن التي نراها بعون الله ذي الجلال والإكرام...⁽¹⁾.

وقوله: "... وفي تراجم البخاري من الدقائق والأسرار ما عجز كل من أتى بعده عن استيفاء مقاصده في ذلك، وسنّينه في كل ترجمة على ما فتح الله به علينا، ومنّ به من فضله، بقدر ما رزقنا من الطاقة مما لم يسبق إليه غيرنا وبالله نستعين"⁽²⁾.

وتكلّم ابن مرزوق على تراجم البخاري وبيّن أن البخاري في جامعه الصحيح جمع بين علم الكتاب والسنة وأقوال الأئمة حيث ضمّ إلى الحديث الذي على شرطه ما يناسبه من القرآن أو تفسيره، أو حديث على غير شرطه، أو أثر صاحب، أو تابعي. ثم ذكر ما اختص به جامع البخاري الصحيح وتفريقه الأحاديث وتكراره فقال: "فاختص عن الجوامع بالجمع بين علمي الكتاب والسنة، تصحيحا لما يورده من السنة، واستشهادا عليه، وتفريقه الحديث على الأبواب، لظهوره في بعضها وخفائه في بعضها لدلالته عليه بتضمن أو التزام أو قياس لاشتراك في معنى جامع أو رمز إلى خلاف أو إلى أن المقصود في بعض طرقه لا في اللفظ المذكور فلذا وشبهه يكثر الأحاديث، ولكون الحديث قد يتضمّن أحكاما فيحتاج إلى اختصاره تارة وتعليقه أخرى لما في تكريره من تعليم، بالاستنباط منه عند وقوع الحادثة والحاجة إليه، وقد يظهر منه في كل مرّة يكرر معنى لم يظهر في غيرها وما خفي أكثر مما ظهر لقصور إدراك البشر عما احتوى عليه كلام من أوتي جوامع الكلم، فلو اقتصر على ذكر ما فيه من الفوائد مرّة واحدة لكان فيه نوع من التحجير، وقد يقصر النظر في تلك المرّة عن أشياء كثيرة ويفتح في كل نظرة في معنى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء".

ويبيّن الحفيد أنه كما يحتاج البخاري إلى التكرار يحتاج إلى الاختصار والتعليق فقال: "وما احتيج إلى التكرار لهذا وغيره من الفوائد احتيج إلى الاختصار والتعليق والنقل بالمعنى إذ لو أتى بتمام المتن والإسناد في كل مرّة لطال طولاً يفوق الحصر، وقد كاد يفوته على ما هو عليه من الاختصار..".

(1) مقدمة المتجر الربيع.

(2) مقدمة المتجر: 10/1.

ثم بيّن أن تكراره في الحقيقة ليس تكرارا فقال: "إنّه في تكراره يأتي بإسناد جديد فإن تعدّر وتغاير السند لانفراد الراوي بالحديث ولزيادة أبواب الأحكام على الرواة علّق واختصر، فهذا من فوائد التعليق والاختصار... وقد ينشط فيُسند ويطول وقد يملّ فيعلّق ويختصر فإذا علمت أن ما ذكر من بعض فوائد تكراره علمت أنه في الحقيقة لا تكرار فيه لأن التكرار عادة ما ذكر لغير فائدة"⁽¹⁾.

وذكر ابن مرزوق في مقدمة الشرح سنده وطريقه إلى البخاري والرواة الذين روى عنهم سماعا وإجازة⁽²⁾ قال: "وأما روايتي هذا الكتاب الشريف فلي فيه طرق مذكورة في غير هذا، وأجلّها عندي أني قرأت جميعه بلفظي بحرم الله الشريف تجاه الكعبة المشرفة سنة اثنتين وتسعين وسبع مائة على الشيخ الصالح برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن صديق الدمشقي بحق سماعه من "الحجّار" الشهير الاسم والسند، ولم يبق في عصر أبي اسحاق - حين قراءتي المذكورة على ما قيل - من سمع جميع الكتاب على الحجّار غيره.

وأجازني جميعه إجازة عامة جدّي - أبو أبي - محمد بن مرزوق رحمه الله ورضي عنه وإمام مقام المالكية بحرم مكة....

وممن حدّثني بكثير منه إجازة صاحبنا العلامة آخر أئمة المحدثين في عصره بالديار المصرية شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجر أبقى الله للمسلمين بركته وحرس ذاته المشرفة وحوزته.

وقد ذكرها في مقدمة شرحه المسمّى "بفتح الباري في شرح البخاري" وفي غيره فمن أرادها فلينظرها هناك..."⁽³⁾.

وتكلّم ابن مرزوق في مقدمة "المتجر" عن جهده واستفراغه الجهد في استنباط الحسن مما يمكن ثم قال: "ومن ثمّ كان رجاء إكمال هذا الشرح مع هذه الأوصاف وكبر جرم الكتاب من المستحيل عادة...." وذكر أيضا عنوان الكتاب، قال: وسميته بالمتجر الرياح والمسعى الرجيح والمرحب الفسيح والوجه الصبيح والخلق السميح في شرح الجامع الصحيح.

(1) مقدمة المتجر: 12/1-13.

(2) مقدمة المتجر: 12/1-13، ثبت البلوي: 256.

(3) مقدمة المتجر: 12/1، (المخطوط) نسخة مصورة.

ثم ختمها بالتوجه إلى الله بالرغبة في نيل الأمل، وإخلاص النية لوجهه الكريم في القول والعمل، مع طلبه من الواقف على هذا الشرح إخلاص الدعاء بالختم له ولذريته وحاشيته وأحبائه بخاتمة السعداء.

وبعد هذه المقدمة التي بيّن فيها ابن مرزوق منهجه شرع في شرح بدء الوحي، مُطَبِّقًا منهجه المبني على تحليل النصوص وتوثيق النقول وعزو كل قول إلى صاحبه بذكر الكتاب وصاحبه مع وضع كلمة "انتهى" عند نهاية الاقتباس وكان لا يفوته ذلك إلا نادرا.

كان رحمه الله يفكّك النص إلى قطع فيشرح ألفاظ الحديث معتمدا على مصادر اللغة مثل المحكم والصحاح للجوهري، ثم يتعرّض لمعاني الحروف حيث قال: "وإذا أَحَطَّتْ عِلْمًا بهذا التحقيق والتنقيح فلنرجع إلى تنزيهه على الحديث فنقول...."⁽¹⁾.

- اهتم ابن مرزوق بذكر المناسبة بين الترجمة والحديث، قال: "ففي مناسبة كتبه على الجملة وأنا أذكر مضمونه هنا على ما يظهر لي مجملا ثم أفصّله في مجاله بعون الله وفضله فأقول: بدأ بكيفية الوحي، لأن منه عرف الشرع جملة وتفصيلا، وأوّل مطلوب من المكلف شرعا على رأي ولعله رأي البخاري، المعرفة بالله المعبود حقا وذلك هو الإيمان فذكر بعده ولما كانت المعرفة خفية اكتفى في الحكم بالاتصاف بها في ظاهر الشرع بالنطق باللسان" أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، والإيمان المعتدّ به عند الله على رأي الأكثر ما كان من علم ونظر واستدلال ولا ينفع إيمان المقلّد، فاعلم أنه لا إله إلا الله ومن مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة ذكر بعده باب العلم الشامل للأصول والفروع، ثم تعرّض للعمل وهو الصلاة وبدأ بالطهارة... ثم الصلاة.. ثم الزكاة... ثم الحج... الخ.

استرسل "الحفيد" في ذكر المناسبة من هذه الأبواب على الجملة⁽²⁾... إلى أن ختم بقوله: "ما أحسن افتتاحه واختتامه أحسن الله إليه، فإن معنى نية العمل إخلاصه لله، وهذا هو كمال التوحيد، وغاية ما يدركه أكثر المكلفين من الاستفتاح بالحمد على ما ظن حتى يعتذر بالاكْتفاء بالبسملة أو بمطلق ذكر الله. وختم بكلمات الحمد صريحا وضمنا، وأيضا لما ذكر الموازين الذي هو آخر الأمر

(1) المتجر: 29/1.

(2) مقدمة المتجر: 13/1، وما بعدها.

وكان آخر الدعاء من ثقل ميزانه الحمد لله ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁾
﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾⁽²⁾ فلله درّه بدأ بالإخلاص وختم به...⁽³⁾.

اهتم ابن مرزوق الحفيد بشرح تراجم الأبواب مع بيان المناسبة التي بين الترجمة والحديث، كما في باب "علامة الإيمان حب الأنصار" فبعد أن ذكر ما قاله ابن بطال نقلا عن المهلب قال: قلت: " وفيه مناسبة عامة وهي أن قصده بهذه الأبواب كما تقدّم ذكر شعب الإيمان الدالة على تعدده وتركبه منها وأنه يزيد وينقص، بحسبها...⁽⁴⁾."

ونلخص منهجه في "المتجر الربيع" فيما يلي:

● في الجانب المنهجي المتعلّق بصناعة التأليف:

- الحرص على إخلاص النية لله تعالى في الأقوال والأفعال.

- تصدير كتاب "المتجر" بمقدمة جلييلة ذكر فيها عنوان كتابه وسبب تأليفه، ومنهجه، مع ترجمة للإمام البخاري وجامعه الصحيح.

- إرشاد القارئ إلى المصادر التي اعتمد عليها، وإلى مواضع بسط بعض المباحث في المصنّفات الأخرى أو مصنّفات جدّه الخطيب.

- الأمانة العلمية ويظهر ذلك في توثيق نقوله وعزوها لأصحابها.

- التحقيق والتدقيق مع النقد والتمحيص، ومناقشة الأقوال بالدليل والبرهان، مع التزام

الموضوعية وتحري الحق. وقد أثنى العلماء على ابن مرزوق الحفيد وعلى مصنّفاتة التي وصفوها بالإتقان والتحري والتحقيق والإبداع والنفاسة.

(1) يونس: الآية: 10.

(2) فاطر: جزء من الآية: 34.

(3) المتجر: 17/1-19 (المخطوط).

(4) ر: باب علامة الإيمان حب الأنصار: 312 من هذا الكتاب.

- الصبر وطول النفس في الشرح وتتبع مفردات الحديث بالشرح اللغوي الدقيق لأنه قطب الرّحى في فهم الحديث والأداة الأساسية لفتح مغاليقه، مع الوقوف على ما تتضمنه الأحاديث من إشارات بلاغية وبيانية، مما يبرز تضلعه في علم اللغة والمعاني.

- عدم التعصب المذهبي، والتزامه بأخلاق العلماء وبالتواضع والأدب التام مع المخالف.

2- الجانب المنهجي المتعلق بشرح الأحاديث

لقد سلك الحفيد في شرح الحديث طريقة الشرح بالمأثور من القرآن والسنة، والمعقول والمنطق، ولغة العرب، واستفاد من علم شيوخه والعلماء السابقين له، وكان كثيرا ما يناقشهم بالحجة والبرهان.

وابن مرزوق عندما يبدأ في شرح حديث من صحيح البخاري، يذكر اسم الباب الذي يندرج تحته الحديث ثم يشرع في التحليل والشرح دون إيراد نص الحديث كاملا- لأنه ضابط للحديث ضبط فؤاد بحيث يستحضر متن الحديث في ذهنه ثم يشرحه ، مقتصرًا على كتابة العبارات محل الشرح دون متن الحديث .

ثم يذكر العلاقة بين الباب والباب الذي قبله مع بيان مقصد الحديث، فابن مرزوق الحفيد اهتم كثيرا بالمقاصد وأسرار الأحكام كما يظهر ذلك في باب "علامة الإيمان حب الأنصار" وغيره من الأبواب.

-تخريج الأحاديث معتمدا في ذلك على كتب الحديث مثل الموطأ والكتب الستة وغيرها.

-الترجمة لكثير من الصحابة، ورواة الحديث وبيان درجتهم، وأقوال علماء الجرح والتعديل. وهذا بالنسبة للتابعين ومن بعدهم. مع ذكر بعض اللطائف والفوائد الإسنادية.

- الاهتمام بشرح وتحليل ألفاظ الحديث مع تتبع أقوال العلماء في ذلك مع المقارنة والترجيح. كما في باب "من قال: إنّ الإيمان هو العمل".

- تفكيك عبارة النص مع بيان منطوقها ومفهومها كما ذكر ذلك الخطاب، حيث كان رحمه الله يقسّم النص إلى جمل وفقرات قصد التحقيق في شرح الألفاظ ويضيف إلى هذه النصوص

تكميلات، معتمدا في ذلك على الوجوه المنطقية، والقياس الفقهي، مخالفا في ذلك طريقة المتقدمين من مالكية المغرب مُتَّبِعًا في ذلك منهج أهل الرأي من الحنفية وعلماء المدرسة العراقية.

- الإشارة في الحديث المكرَّر إلى موضع الشرح أو مكان بسط القول فيه.

- ذكر معنى الحديث وذلك بعد شرح ألفاظه من مختلف كتب اللغة مثل الصحاح والمحكم والمخصص والمشارك... كما في شرح حديث أبي اليمان من كتاب الإيمان.

-تقرير مذهب الإمام مالك والاستدلال له، مع اهتمامه ببيان مشهور مذهب مالك واختلاف أقواله في المسألة الواحدة واختلاف الرواة عنه واختلاف فقهاء المالكية من أهل الأمصار.

- اعتماده على المصادر المالكية مما يبرز مذهبه المالكي، وإن كان لا يستغني عن ذكر أقوال العلماء الآخرين كأبي حنيفة والشافعي وأحمد - عليهم رحمة الله -.

-الاستفادة من كتب الشروح التي سبقته كشرح الداودي والخطابي والمهلب وابن التين وابن بطل وغيرها. وابن مرزوق لم يقتصر على شرح صحيح البخاري فقط إنما اعتمد على شروح الصحاح الأخرى والسنن، وكذا تفاسير القرآن الكريم.

- اعتماد المناقشة في كثير من المسائل فهو يكثر في شرحه المناقشة والمناظرة، ويكثر من الافتراض والاعتراض على أدلة الرأي الآخر حيث نجده يكثر من ذكر عبارتي: "فإن قُلْتُ"... "قُلْتُ" ومثال ذلك في باب حدثنا أبو اليمان⁽¹⁾، قال بعد أن ذكر ما تضمَّنه الحديث من درء المفاسد فإن قلت: "نفى من الضروريات الخمس حفظ العقل لم يشر إليه في هذا الحديث."

قلت: "لما لم يصح امتثال شيء من هذه المنهيات إلا مع حفظه استغنى بها عنه أو أنه من حفظ النفس لأن ذهاب العقل لا يكون إلا مع كمال صحة المزاج، وقد يقتل استعمال ما يذهبه أو لما فيه من الحد الذي يتلف النفس، أو يقال: إنه داخل في البهتان لقول علي رضي الله عنه: "إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افتري" وهذا أقرب.

(1) ر: باب حدثنا أبو اليمان...

ثم قال ابن مرزوق: **فإن قلت**: إن صحَّ في الحديث إشارة إلى الضروريات الخمس كما ذكرت، فهل فيه ما يدلُّ على منزلها في القوة في أصول الفقه؟ **قلت**: الظاهر لا، وإنما ذلك التنزيل من نظر المجتهدين...⁽¹⁾

- توظيف علم المنطق الذي هو العلم بالقوانين التي يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة بالماهيات والحجج المفيدة للتصديقات.

ومثال ذلك ما جاء في باب علامة الإيمان حب الأنصار قال: "وإذا كان جبههم علامة صدق الإيمان كان بغضهم علامة ضده، وهو كذب الإيمان أو فساده، فالإيمان ملزوم جبههم والنفاق ملزوم بغضهم والتضاديين الملزومين يستلزم التضاديين اللازمين الخاصين وقد يعكس...⁽²⁾.

- مناقشة الأقوال بالحجة كما في قوله في الباب الخامس: "فإن تابوا"⁽³⁾ "... وقد بينَّا اختلاف الوجهين معنيَّ كما هما لفظا لا كما توهم أبو حيان ولا حجة له في دعوى الإجماع على جواز الوجهين إن ثبت لأنه إن صحَّ يكون مرتبا على المقصدين لا على مقصد واحد.. " ثم قال: " فتمسك بهذا التحقيق وتأمله حق التأمل"⁽⁴⁾.

إن ابن مرزوق الحفيد -عليه رحمة الله- لا يكتفي بنقل آراء العلماء بل يناقشها بالحجة والبرهان، فهو يناقش أقوال المهلب والخطابي وابن التين وابن بطلال كما ناقش في هذا القول أبا حيان صاحب البحر، بل يناقش أيضا الإمام البخاري (المصنّف) كما في قوله: "وعلى هذا المحمل لا حجة للبخاري في الحديث ولو أريد حقيقة الإيمان التصديقي لما اقتصر على رسوله وملائكته إلى آخر أركانه.. " ثم قال: "وهذان التأويلان اللذان اخترناهما وجهان طريقان قويان في الجمع بين مختلف أحاديث هذا النوع، جاربان على أصول علم المعاني فشدد عليهما يد الضنين واستغن بهما عن غيرها مما ذكر في جمعها لما فيه من التعسف والتكلف والمنّة والفضل لله سبحانه وبه التوفيق"⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ ر: باب حدثنا أبو اليمان...

⁽²⁾ ر: باب علامة الإيمان حب الأنصار.

⁽³⁾ المتنجر: 62/2، باب "فإن تابوا".

⁽⁴⁾ المصدر نفسه 62/2.

⁽⁵⁾ المتنجر: 1/باب من باب إن الإيمان هو العمل.

وفي قوله: "... وكان حقّه أن يقول: وإن العلم ليطابق لفظ الحديث وتعبيره بالمعرفة إما لأنه يرى مرادفتها للعلم وتفنّن في العبارة ليفيد التسميتين، وإما لأنه أراد المعرفة لغة، وهي تمييز الشيء أعم من كونه تصورا أو تصديقا، ولو قال: وإن العلم لما أفاد أن التصور فعل القلب لأن حكم الأخص لا يتعدى إلى أخص آخر كما هو اصطلاح المنطقيين وبعض أهل الأصليين فإن عندهم المعرفة مخصوصة بما كان من العلوم تصورا..."⁽¹⁾.

ثم قال: "... ويدلّ على ضعف استدلاله بالآية على أن المعرفة فعل القلب إن قصد دلالتها عليها بالخصوصية ما ذكر المفسرون في معناها، ويقوى حينئذ احتمال كونه استدلال بها على أن للقلب فعلا بالإطلاق، لأن الآية وردت فيما يؤخذ به من الإيمان، وما لا..."⁽²⁾.

- الاهتمام بالجانب اللغوي وإبراز ألوان البديع والبيان والمعاني والاستدلال بالأراء والأقوال التي ينسبها إلى أصحابها من مختلف المذاهب، وترجيح ما يراه راجحا، فقد شرح ألفاظ الحديث وبيّن لغتها معتمدا على مصادر اللغة القويّة مستعينا بما قاله أئمة اللغة مثل ابن سيده والجوهرى وغيرهما مما جعل من هذا الشرح موسوعة لغوية يرجع إليها أيضا الباحث في اللغة والنحو والبلاغة والمعاني.

والإمام ابن مرزوق الحفيد كثيرا ما كان يخالف رأي أئمة اللغة ويناقشهم مستدلا لذلك كما في باب "فإن تابوا" قال "الحفيد": "واستشكل أبو حيان البديل من إله لأنه على تكرير العامل.... ثم قال: وقال أبو حيان ولا نعلم فيه خلافا انتهى مختصرا. قلت: ما قاله هذا البعض قد يرجع إلى ما قال ابن الحاجب لأنه إذا نصب كان فضلا، والمستثنى منه مقصود بالحكم معتمدا عليه.... وقد بيّنا اختلاف الوجهين معنى كما هما لفظا، لا كما توهم أبو حيان، ولا حجّة له في دعوى الإجماع على جواز الوجهين إن ثبت..."⁽³⁾.

- الاعتناء ببيان مقصد الأبواب كما في باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا أعلمكم بالله... قال بعد أن بيّن ما دلّ عليه الباب والمناسبة بينه وبين الأبواب التي قبله والمقصد من الباب: "... وكأنه قصد بالباب الرد على الكرامية... وبيان مقصده أن رسول الله أخبر أنه أعلم أمته بالله

(1) باب فإن تابوا.

(2) الباب السابق.

(3) ر:باب فإن تابوا .

تعالى لأن ضمير أعلمكم وإن كان ظاهرا في خطاب من شافهه لكن حكمه عام لجميع الأمة، وإن خص بالصحابة وغيرهم أخرى، لأن الصحابة أعلم بالله ممن بعدهم من الأمة، والأعلم من أعلم أعلم والله تعالى أعلم⁽¹⁾.

ثم قال: "والعلم بالله هو نفس الإيمان فإذا كان أعلمهم به كان إيمانه به زائدا على إيمانهم، ولما كان لقائل أن يقول: وهل هذه العلمية ترجع إلى زيادة الأعمال زاد وأن المعرفة فعل القلب لينفي هذا التوهم،⁽²⁾ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وإن كان بعيدا لأن من المعلوم أن العلم محله القلب عند الأكثر بدليل⁽³⁾ ... وهو كثير وهذا ونحوه أولى من استدلال المصنف بأن ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ كسب القلب أعلم من أعلم لتناوله الحقد والغل والحب... ولا إشعار للأعم بأخص معيّن اللهم إلا إن قصد أن يثبت أن للقلب عملا على الجملة فنعم، لكنه لا يمس ما قصد من الاستدلال على ما ادعاه من أن محل العلم بالله هو القلب بل يكون أجنبيا لا مناسبة له⁽⁴⁾.

- ذكره لفقهِ الحديث والأحكام المستنبطة منه، حيث يذكر فقهِ الحديث ثم يضيف ما قاله العلماء الذين سبقوه، مع مناقشة الأقوال والترجيح، كما في "باب حدثنا أبو اليمان" قال: "وفي الحديث من الفقه: عقد الإمامة، ومبايعة الإمامة على إقامة الدين أصوله وفروعه، وفيه شرع وظيف النقابة لأنه أضبط لحال جماعات الجيوش... الخ⁽⁵⁾.

جاء في باب "علامة الإيمان حب الأنصار" مناقشته وتضعيفه لقول ابن التين، فبعد أن أورد كلام ابن التين قال: "...وهو ضعيف لأنه يكر على قاعدة أصل التخصيص بالإبطال، لأن تخصيصهم كما سبق لتفضيلهم من الوجه المتقدم..."⁽⁶⁾.

(1) المتجر: 2/، باب "أنا أعلمكم بالله...".

(2) الأعراف: جزء من الآية 179.

(3) الحج: 46.

(4) المتجر الرياح: 2/ باب أنا أعلمكم بالله.

(5) باب علامة الإيمان حب الأنصار.

(6) الباب نفسه.

وفي حديث "إذا التقى المسلمان بسيفهما..." نقل كلام عياض ثم قال: قلت: "وكلامه هذا معارض لما تأول هنا موافقا لقول الأكثر، وتأويله غيره الذي نقله ليس ببعيد كما ظن، لكن قول هذا المتأول لم يرد هذين بل العصبية.... ثم قال: "والظاهر أنه منها لأن سبب قتله سبه إياه، وهو نوع من ذلك...." (1).

- إيراد كثير من التحقيقات التي لم يسبق إليها كما في باب "فإن تابوا" قال: وهذا التحقيق الذي فتح الله فيه، ومن به عليّ في هذه الكلمة التي هي كلمة التوحيد..... لم أره على التعيين لغيري، من متقدم ولا متأخر، وإن كان مأخوذا من أصولهم.... ومن حق هذا التحقيق أن يكون وحده نوعا من العلم حافلا وديوانا من التأليف كاملا... (2).

المطلب الثاني: موارد المتجر وأثره:

الفرع الأول: موارد ومصادر المتجر الريح

لقد تنوعت موارد ابن مرزوق وتعددت، حيث اعتمد على كتب اللغة والحديث والفقه والتفسير والأصول فأخذ منها بنصيب، وعلى رأس هذه المصادر اعتمد على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، كما استعان بالمبادئ المنطقية والأقيسة العقلية.

كما تتبع ابن مرزوق شروح صحيح البخاري التي سبقته، فخير قوتها ونقصها وحاول استدراك ما فاتها، يظهر ذلك من خلال تحقيقاته التي أخبر أنها لم تكن لغيره فقد أكثر من ذكر "ولم أره لغيري" كما ذكر ابن مرزوق شرح الحافظ ابن حجر - رحمه الله - الموسوم "بفتح الباري" فدل ذلك على اطلاعه عليه.

كما دلّ على أن شرح "المتجر" جاء بعد شرح ابن حجر "فتح الباري" أو في نفس الفترة ويؤكد ذلك قول ابن حجر في "المجمع المؤسس": إنه سمع من ابن مرزوق وهو بدور سمع منه "وهذا ما يعرف في اصطلاح أهل الحديث بالتدريج كما ذكر ابن حجر أن الحفيد ابن مرزوق أخذ عنه قطعة من شرحه "فتح الباري".

وإضافة إلى اعتماد ابن مرزوق على شروح البخاري التي سبقته أو تزامنت معه، فقد اعتمد على عدة كتب متنوعة في اللغة، والحديث والفقه وأصول الفقه والسيرة والتاريخ والسير، والمنطق،

(1) راجع المسألة في باب حدثنا أبو اليمان ص.

(2) راجع المسألة في باب فإن تابوا من هذا البحث.

فجمع شتات مقاصدها، وضم إليها من غيرها نخب فوائدها، فاجتمع في كتابه ما تفرّق في غيره، فجاء شرحه هذا آية في التحقيق والشرح حتى قال عنه مؤلفه: "إنه اجتمع فيه من التحقيقات ما لم أره لغيري"، وقال عنه غيره من العلماء: "إنه لم ير الرءون مثله"⁽¹⁾.

وهذه باختصار موارده في هذا الشرح:

اعتمد ابن مرزوق -عليه رحمة الله- على:

القرآن الكريم-

المحكم لابن سيده في شرحه لألفاظ الحديث مما يبرز قدرته اللغوية وتمكنه منها والصحاح -
للجوهرى، وعلى كتب الزمخشري، وعلى فصيح ثعلب وكتاب الاشتقاق للنحاس وشرح التسهيل لابن
مالك، واستشهد بكثير من أقوال أهل اللغة مثل الفراء، وابن جني والخليل بن أحمد وابن درستويه وسيبويه
وابن الأعرابي، والسكاكي، وابن دريد⁽²⁾ وغيرهم.

واعتمد في الحديث وعلومه على الموطأ وعلى صحيح البخاري وصحيح مسلم، ومسند أبي يعلى و
شرح الداودي، وشرح المنهاج للنووي، وشرح أعلام السنن ومعالم السنن للخطابي وعلى شرح ابن بطل
وابن التين، وبدالدين العيني، وشرح المهلب بن أبي صفرة، والشفا والإمعا للقاضي عياض، وعلى المعلم
بفوائد مسلم للمازري، وإكمال المعلم و مشارق الأنوار للقاضي عياض وعلى التمهيد والاستدكار لابن
عبد البر... الخ

وفي التفسير على تفسير ابن عطية والزمخشري وابن العربي المالكي وتفسير أبي العالية وغيرها.

وفي الفقه اعتمد على: المدونة، والواضحة لابن حبيب ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وشرح
الأحكام لجدّه الخطيب، ومختصر ابن الحاجب الفرعي، كما في باب فإن تابوا، كما اعتمد على
الجلاب والنوادر والموازية لابن المواز، والبيان والتحصيل لابن رشد، وطرر ابن عات. واستشهد بأقوال
المازري وأشهب وأصبع، وابن حبيب وسحنون، وابن سحنون وابن الماجشون والباجي وابن القصار
من شيوخ المالكية، كما ذكر أقوال بعض أصحابه دون أن يشير إلى أسمائهم، وأورد أقوال صاحب

(1) ذكر هذا صاحب معلمة التراث بشير ضيف.

(2) ذكره في ورقة 85 و94 ومن نسخة "ر".

التحرير، وأقوال ابن بزيّة، وإمام الحرمين، وأقوال المزني، والحكم بن عُتَيْبَة، وأقوال ابن الطيب، وابن الملقن وغيرهم.

وفي أصول الفقه: اعتمد على المحصول لابن أبي حاتم الرازي، وعلى ابن الحاجب الأصلي الذي له عليه تقييد والتنقيح للقراقي وغيرها.

وفي الأخبار والسيرة وتراجم الرواة اعتمد على تاريخ البخاري، وطبقات ابن سعد وعلى الواقدي وكتب التاريخ.

الفرع الثاني: أثر شرح ابن مرزوق "المتجر الربيع" في تلاميذه ومن جاء بعدهم

إنّ ابن مرزوق شرح صحيح البخاري شفاهاً بحيث أخذه عنه كثير من العلماء والطلاب، يشهد لذلك ما ذكره تلاميذه، وما جاء في مقدمة "المتجر" حيث قال: "رويته ورؤيته مدة ودرسته..". وعليه فشرح ابن مرزوق أخذه عنه كل من حضر دروسه في المسجد ودور العلم. وممن استفاد منه قراءة ونقلًا نذكر:

- ابن مرزوق الكفيف - ابنه - نقل ذلك "البلوي" عن شيخه ابن مرزوق الكفيف، عن والد شيخه ابن مرزوق "الحفيد"، وقد قرأ عليه أيضاً أغلب كتبه في الحديث وغيره وأخذ عنه جزءاً من شرح البخاري "المتجر الربيع".

قال البلوي: "... وشيخنا رضي الله عنه أي الكفيف يحمل عنه ذلك بحكم الإجازة العامة له، وأخبرني - رضي الله عنه - أنه قرأ عليه كثيراً منها، كالروضة، والحديقة ومنتهى الأمان، ومواهب الفتاح ومفتاح الجنة، وما شرح من الألفية وغير ذلك.. وحضر مواضع من تصحيح شرح البخاري المذكور، وعلى أبيه معتمد شيخنا هذا نفعنا الله به"⁽¹⁾.

وذكر الإمام القلصادي الكتب التي قرأها على شيخه ابن مرزوق الحفيد منها صحيح البخاري وإعرابه قال: فقرأت عليه كتابه في الفرائض وأواخر الإيضاح للفارسي وشيئاً من شرح

(1) ثبت البلوي: 294.

التسهيل لابن مالك وحضرت عليه نحو الربع من إعراب القرآن وصحيح البخاري⁽¹⁾ والشاطبيتين والأكثر من ابن الحاجب الفرعي... وغير ذلك من الكتب⁽²⁾.

ومن الذين ذكروا "المتجر الرياح" الإمام القسطلاني في مقدمة شرحه إرشاد الساري إلا أنه لم يوفق إلى الاطلاع عليه⁽³⁾.

ومن الذين اعتنوا بهذا الشرح واعتمدوا عليه كثيرا الإمام محمد بن يوسف السنوسي في شرحه على البخاري⁽⁴⁾.

ويظهر ذلك من خلال النقولات المتكررة عند السنوسي، حيث نجده كثيرا ما يقول: "وقال الشيخ العلامة سيدي أبو عبد الله محمد بن مرزوق.."⁽⁵⁾، وفي بعض الأحيان يقول: "وقال الشيخ رحمه الله ونفع به"⁽⁶⁾.

!والسؤال الذي يطرح نفسه ما هو السبب في ندرة نسخ هذا الشرح وعدم انتشاره؟

لعلّ السبب في عدم انتشاره يرجع إلى كونه أُلّف في آخر حياته والمعروف أن رحلته الأخيرة إلى المشرق كانت سنة تسع عشرة وثمان مائة، وقد أُلّفه بعد هذا التاريخ.

وربما يرجع سبب ذلك إلى عدم تعريف ابن مرزوق الحفيد بهذا الشرح فلو عرّف به مثلا وقدم له بمقدمة كما فعل الحافظ ابن حجر -عليه رحمة الله- الذي كتب مقدمة سماها "هدي الساري" بيّن

(1) ربما تضمنه قوله: "صحيح البخاري" لأنه قال: حضرت عليه صحيح البخاري (رحلة الفلصادي: 96).

(2) المصدر نفسه: 97.

(3) شرح القسطلاني: 41/1.

(4) شرح السنوسي على البخاري، توجد نسخة منه في مكتبة الحامة بالجزائر تحت رقم 2726، والنسخة بها خروم، وهذا الشرح لم يكمله، وصل في شرحه إلى باب من استبرأ لدينه.

(5) كما في كتاب بدء الوحي ورقة 17، وكذا ورقة 23، 36، 37، 40، 45، 65، 69، 70، 71، 78، 80، 82، 83،

89 من كتاب الإيمان، وغيرها من النقول التي كان في بعض الأحيان يناقش فيها ابن مرزوق كما في ورقة: 89 و. ر: شرح

السنوسي: المخطوط رقم 2726 الحامة الجزائر.

(6) كما في ورقة 70 ظ من المخطوط.

فيها جميع مقاصد الشرح فكانت تلك المقدمة سببا في شهرة فتح الباري - قبل أن يتمه - وتشوق القراء إلى اقتنائه والرغبة في تحصيله ممن اطلع على المقدمة⁽¹⁾.

وعن ندرة نسخه ربما يعود السبب في ذلك إلى ندرة ناسخيه، فلو أقبلت طائفة من التلاميذ والعلماء على نسخه وكتابته كما هو الشأن في فتح الباري الذي اهتم النساخ بنسخه، فكثرت بذلك نسخه - وهذه ميزة المشاركة - وربما يعود أيضا إلى التقصير في حق هذا العالم الجليل وغيره من علمائنا وصدق "ابن مريم" عندما قال - مبيِّنا الفرق بين المشاركة والمغاربة في مدى اهتمامهم بعلمائهم - "يرحم الله المشاركة ما أشدَّ اعتناءهم بعلمائهم وبالصالحين منهم"⁽²⁾ على خلاف المغاربة وخصوصا أهل بلدنا!

وعليه قد يكون سبب عدم انتشار "المتجر الربيع" وندرة نسخه إلى تقصير الأبناء وطلاب العلم في القيام بواجب المحافظة على هذا الشرح القيم، بالإضافة إلى المستدمر الفرنسي الذي أتلف خزائن بأسرها حرقا ونهباً والله أعلم⁽³⁾.

أو قد يكون كتابه عزيز الوجود، ووقوعه في يد من ييحل ويضن به كما ذكر ذلك الخطاب في مواهب الجليل عن كتاب "المنزعة النبيل" للحنفي.

فهذه كما أرى من أهم الأسباب التي سببت ندرة نسخه، وقلة تداوله والله أعلم.

خاتمة: لقد كان "ابن مرزوق الحفيد" إمام تلمسان في عصره وعالمها،⁴ حامل لواء محاربة البدع، واتباع السنة في الأقوال والأفعال، فقد كانت له محطات كثيرة في مختلف البلدان عالما ومتعلما ومؤلفا، وقد حلاه ابن غازي بالإمام، قطب المغرب، العلم العلامة الصدر الأوحده، المحقق النظار، الحجة، العالم الرباني⁵، وقال ابن مريم في البستان: "إنه كان آية في تحقيق العلوم، والاطلاع المفرط

(1) حوالات الحافظ ابن حجر في فتح الباري : د. محمد زين العابدين رستم: 389-390 مقال نشر في مجلة السنة النبوية: عدد: 4.

(2) البستان: ابن مريم: 7.

(3) فهذا الشرح لو خدمه تلاميذ ابن مرزوق ونسخوه لكان آية في الحسن.

(4) وقال تلميذه ابن العباس: "..... كان شديد الحكمة في أمور الشريعة ماضي العزيمة، كثير الحذر... متحريرا فيم يتلقى ويلقى" الكفاية 394.

وقال ابن غازي نقلا عما حدثه شيخه الورياحلي بأن ابن مرزوق كان شديدا على أهل البدع.

(5) فهرس ابن غازي: 113

على المنقول... الآخذ من كل فن بنصيب " وبعد أن عدد محاسنه وخصاله قال: " وبالجملة فإن الوصف يتقاصر عن صفاته، فهو شيخ العلماء في أوانه، وإمام الأئمة في عصره، وزمانه، شهد بنشر علومه العاكف والبادي، وارتوى من بحر تحقيقه الضمان والصادي

حلف الزمان ليأتين بمثله * حنثت يمينك يا زمان فكفر

وإن هذه الأوصاف التي وصف بها فمما علم من حاله، فلا يحتاج في نسبته إلى قائل معين، ومتى احتاجت شمس الضحى إلى دليل؟...¹ ثم ختم ابن مريم متحسرا لعدم إيفائه حقه فقال: " يا له من عالم وإمام جمع العلوم بأسرها لكنه بخسته الدار فالله يرحمه ويرضى عنه، وينفعنا به"².

وكتابه "المتجر الرياح" من أجل الكتب التي تشهد بغزارة علمه وسعة اطلاعه ودقة تحقيقاته كما تشهد بمدى اهتمام علماء المغرب بصحيح البخاري، وترد على الدعاوي الباطلة التي تقول إن علماء المغرب اهتموا بالفروع وتركوا الأصول، وقدموا صحيح البخاري على صحيح مسلم. والحمد لله رب العالمين.

¹ : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان: ابن مريم: 204-205.

² : المرجع نفسه: 204.